﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

[الرّوم: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ضـــرب مـثـل الأصنام، وأنّها ليست شريكة لله في ملكه، بـعـد مـثـل الابتداء والإعادة

وُصف الحقّ ﷻ في الآية السّابقة بالمثل الأعلى، كمالًا في الخلق والقدرة، وأنموذجًا أعلى في العزّة والحكمة، وتساءل في استنكار واستغراب، عن اتّخاذ الكفّار أصنامًا دونه؟ فضرب المثل لهم من أنفسهم، ليتّضح المقال بالمثال، وليتميّز الخالق من المخلوق، وكما ضرب المثل هناك بالخلق والإعادة، ضرب هنا المثل بالسّيّد وعبيده، تفريقًا بين المالك والمملوك، لإدراك الفرق بين العابد والمعبود، و"جعل له المثل الأعلى الّذي لا يتّصل به تكييف، ولا تماثل مع شيء"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيْمَٰنُكُم﴾: أصلُ (يمن) القوَّةُ والبركة، وتُطلَق اليَمينُ على إحدى اليدين لمبادرة النّاس بها في التّعامل والتّناول، وكثرة الاعتماد عليها، فصار رجاء اليُمن بها[2]؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصّافات: 93]، وأطلقتِ اليمين على القسم؛ لأنّ العرب إذا تحالفوا ضرب كلّ واحد منهم بيمينه يمين صاحبه، كما كُنّيَ باليد اليمنى عَنِ التَّمَكُّنِ مِنَ المأْخوذِ؛ وجمع اليمين أيْمانٌ[3]، ومعنى مِلك اليَمين في الآية: الأمَةُ والعَبْد المملوكان، والقرآن يجعل تعبير (أيمانكم) بمعنى العهود والمواثيق أو القسم، وهو ما يتّفق مع

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 335.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (يمن).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (يمن).

مبدأ القرآن، في كون الزّواج ميثاقا بين طرفين، بل هو ميثاق غليظ، كما وصفه القرآن، في معرض كلامه عن المهر، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النّساء: 21][1].

2) ﴿شُرَكَآءَ﴾: أصلُ (شرك) الشِّرْكَةُ، وهو أن يكونَ الشَّيءُ بين اثنين، لا ينفردُ به أحدُهما، ويُقالُ: شاركتُ فلانًا في الشَّيءِ، إذا صرتَ شريكَهُ، وأشركتُ فُلانًا، إذا جعلتَه شريكًا لك[2]، والشّريك يجمع على شركاء وأشراك، مثل شريف وشرفاء وأشراف، والمرأة شريكة، والنّساء شرائك، وشاركت فلانًا: صرت شريكه[3]، والطّريق مشترك، أي: النّاس فيه شركاء، وكلّ شيء كان فيه القوم سواء فهو مشترك[4]، والشِّرْكُ: يأتي بمعنى المُشاركة، وهي الانضمامُ والمُخالطَةُ بين الشَّريكين، يُقالُ: شركتُه في الأمر وشاركتُه: إذا انضمَمتُ إليه وخالطتُه، وصرتُ شريكًا له[5]، والمقصود بالشُّركاء في الآية: المُشارِكُ في المال؛ لقوله بعدها: ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

3) ﴿سَوَآءٌ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بَيْنَ شيئين، يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أيْ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هذا الأمرِ، أيْ سواءٍ[6]، فالسَّواءُ: العدلُ، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: 58]، أي على حكم العدل والإنصاف[7]، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه؛ لاسْتِواءِ المسافةِ إلَيْه مِنَ الأطْرافِ[8]، وبنو فلان سواء وسواس – إذا استووا في خير أو شرّ والسّيّ – المثل فإذا قلت سواسية لم يكن إلّا في شرّ، قال أبو عليّ: وأمّا قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: 6]، فإنّ السّواء، والعدل، والوسط، والنّصف، والقصد، ألفاظ يقرب بعضها من بعض، في المعنى، قال زهير:

أرونا سُنّةً لا عيبَ فيها *** يُسَوَّى بَيْنَنا فيها السَّواءُ[9]

---

(1) توفيق حميدة، مقال: هل هناك معنى آخر لـ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، منشور عل الشّابكة، في 11 ديسمبر 2020م.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).

(3) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (شرك).

(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (شرك).

(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيّوميّ، المصباح المنير: (شرك).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوى).

(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سوى).

(8) ابن منظور، لسان العرب: (سوى).

(9) البيت لزهير بن أبي سلمى، يُنظر: ديوانه، ص: 15، وفيه: (أرونا سنّة لا عيب فيها) وتم التصويب في المتن، وهو والفقرة الّتي قبله مذكوران عند ابن سيده المرسيّ، المخصّص: (الاستواء).

والمقصود بـ﴿سَوَآءٌ﴾ في الآية: التّساوي، والمعنى: أنتم ومَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ مُتساوينَ.

4) ﴿نُفَصِّلُ﴾: (فصل) أصلٌ يدُلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ من الشَّيءِ وإبانتِه عنه[1]، والفَصْل: الحاجِز بين الشَّيئين، فصَلَ بينهما يَفْصِل فصلًا فانفصلَ، وفَصَلْت الشَّيءَ فانفصلَ أي: قَطَعْتُهُ فانْقطعَ[2]، وفَصْلُ الخِطاب: ما فيه قَطعُ الحُكم، والتَّفصيلُ: التَّبْيينُ[3]؛ لأنّ المعاني تتّضح، فتنفصل عن بعضها، ولا يكون بينها اشتباه أو خفاء، وهو في الآية مراد به: التَّبيينُ والتَّوضيحُ، أيْ: نُفصِّلُ الدَّلائلَ على الاعتقادِ الصَّحيحِ تَفصيلًا كهذا التَّفْصيلِ، ونوضّحه وضوحًا بيِّنًا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أعطى اللّهُ تعالى للمُشركينَ - مَثَلًا قريبًا مِن أنفُسِهم، يوضِّحُ قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه، فقال: أيكون لكم مِن رَقيقِكم الَّذين تَملِكونَ، مَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ؟ فتكونوا أنتم وهم فيه مُتساوينَ! تَخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه، كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ، أن يَتصَرَّفَ في مالِه بشَيءٍ دونَ رِضاه أو إذنِه، وعليه، فإنّه كما لا يَرضى أحَدٌ منكم أن يكونَ عَبيدُه شُرَكاءَ له في رِزقِه، فاللّه لا يَرضى أن يكونَ له شَريكٌ مِن عَبيدِه في ألوهيّته، وبذلك نُفَصِّلُ آياتِ القُرآنِ؛ ليَتبَيَّنَ الحَقُّ لذَوي العقولِ، وأرباب الأفهامِ[5].

تمثيل إشراك الشّركاء لله في الاعتقاد، بإشراك العبيد ساداتهم في التّصرّف بما يستفاد

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ عمّا قبلها:

فُصِلت جملة ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ عمّا قبلها؛ لتمام الاتّصال

إتْباعُ الدّليل بالمثل، مبين عن المراد من السّياق المستفاد

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فصل).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فصل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 87.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 489، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 312، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.

بينهما[1]، فهو إتباعُ الدّليل بالمثل[2]؛ فلمّا ذكر الله الأدلّة على وحدانيّته، وكمال صفاته، وأنّه له المثل الأعلى في السّماوات والأرض، ضرب مثلا لذلك[3] بما في أنفس المشركين من خوف الشّركة في ملكهم، مع أنّ الله تعالى أولى بذلك، فهو المالك وحده، وحتّى ينتظم الدّليل على أصل الوحدانيّة، وأصل البعث، وينكشف المعنى بالتّمثيل والتّقريب بعد نهوضه بدليل العقل، قرّب لهم الصّورة في مشهد من الواقع المعيش في بيئتهم العربيّة الجاهليّة.

بلاغةُ التّمثيل للمشرك بمِلكِ اليمين:

التّمثيلُ لهم من واقعهم، بما يكرهونه لأنفسهم، ويستبيحونه لله خالقهم

جاء التّمثيل على بطلان الإشراك بالله ﷻ، بحال المشرك مع ملك يمينه، يشاركونه في ماله وقراره، وهو ما كانت العرب تأباه وتأنف من قبوله والرّضا به، وتكمن بلاغة التّمثيل بذلك في جوانبَ منها: أنّه مثال من أنفسهم ومألوفهم، يلمسونه في واقعهم، فهو أدعى للإقرار به، وفهم مضمونه، وإدراك غاية التّمثيل به، كي يدركوا بأنّ ما يكرهونه لأنفسهم، يجب أن ينزّهوا عنه خالقهم، الّذي هو سبب وجودهم، ومصدر نعمائهم، لو كانوا يعقلون، ومنها أنّه حضٌّ للمشركين، للارتداع عن إشراكهم، وذلك بإرفاقه بالإستفهام الإنكاريّ، بغرض إبراز المعنى الاعتقاديّ في الشّرك الباطل المهين، في هذه الصّورة المحسوسة المشوّهة[4]، حتّى يزهق الباطل، ويظهر الحقّ ويستبين.

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿ضَرَبَ﴾:

إقامةُ الحجّة بوضع الأمثال القريبة للمعاني، مفيد في الإبانة

عبّرت الآية بفعل ﴿ضَرَبَ﴾ للمثل، دلالةً على وضعِ مَثَل نظيرًا لمعنى؛ حتّى يزداد وضوحًا[5]، وحتّى يُحدث أثره الإيجابيّ في التّعرّف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 85.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 43.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86 (بتصرّف).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 85.

على الأمور وتعقّل المعاني[1]، ما يشير إلى أهميّة المعنى الممثّل له والحاجة إلى توضيحه إزالةً للشّبه، وصوغه على هيأة الماضي يحقّق هذا المعنى بما يتضمّنه من إيحاءٍ بالوقوع.

دلالةُ (اللّام) والقيد ﴿لَكُم﴾:

ضربُ المثل لأجل الإفهام، مفيد في إيضاح مغزى الكلام

عبّرت الآية باللّام في ﴿لَكُم﴾، وهي لام التّعليل[2]، علّلت ضرب المثل بأنّه لأجل إفهام المخاطبين، فالموضوع هو وحدانيّة الله، والموقف الشّائن هو الإشراك بالله مع أنّه الواحد الأحد، فاقتضى الأمر ضرب المثل، وتعليل ذلك حتّى يكون محلّ اهتمام وإعمال نظر، كما أنّ تقييد ضرب المثل بالجارّ والمجرور ﴿لَكُم﴾، هو مزيدُ بيان وتوضيح، وإزالة للشّبهة، وإقامة للحجّة، رجاء تصحيح ذلك التّناقض الصّارخ، بين كمال الله، الّذي له المثل الأعلى في السّماوات والأرض، وبين عبادة غيره من الأشياء والأشخاص الّتي لا تنفع نفسها بَلْه غيرها.

دلالةُ مرجع الضّمير في ﴿لَكُم﴾:

مفادُ التّخصيص، إظهار غرابة الإشراك، مع كمال الله المتفرّد

يعود الضّمير في جملة ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾، إلى الكفّار المشركين بالله آلهة أخرى، وقد قُدّم للاهتمام بالمخاطب وتخصيصه بضرب المثل، فالمثل قد ضُرب لكم دون غيركم؛ لما في موقف الشّرك من غرابة، مع كمال وحدانيّة الله وتمام ملكه وعزّته وحكمته، فخُصّ ضرب المثل ابتداء، بهؤلاء المشركين، توضيحًا لغريب فعلهم، وجلبًا لمزيد اهتمامهم، ومواجهةً لهم سوء فعلهم.

وجهُ التّعبير بلفظ ﴿مَّثَلًا﴾:

بيانُ التّشابه الدّقيق في صورة مثلٍ، بالإقناع حقيق

جاء التّعبير بلفظ ﴿مَّثَلًا﴾ منكّرا، في قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾، أي: أنّ هذا المثل المضروب، يتبيّن به بطلان الشّرك مِنْ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11395.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 85.

أَنْفُسِكُمْ، بكونه منتزعًا من أحوالها، وهي أقرب الأمور إليكم وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على ما ذُكر من بطلان الشِّرك، لكونها بطريقِ الأولوية[1] وأظهر كشفًا لما تعرفونه من أحوالها ونزغاتها، ويدلّ المثل على مشابهة بين حال المشركين، وحال أخرى لا يتفطّنون لها، فاحتيج إلى تمثيل يكشف النّقاب، ويبيّن الصّواب، وفي تنكير المثل دلالة على أنّ أيّ مثل يصلح للإقناع، فهو حقيق بأن يُمثّل به.

معنى ﴿مِّنْ﴾ في القيد ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

دلّ حرف ﴿مِّنْ﴾ في القيد ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ على ابتداء الغاية[2]؛ أي إنّه أُخِذ المثل من أنفسكم، وانتُزع منها[3]، وهي إشارة إلى قرب المثل والتصاقه بالأنفس؛ فالقرب دليل الألفة، وهو ما يجعل المثل أدعى للإقبال عليه، ثمّ لقبوله، وليس ببعيد عنكم تنفرون منه وتستغربونه[4].

القربُ دليل الإلف وأدعى للقبول واللّطف

دلالةُ التّعبير بالنّفس ونكتةُ جمعها:

عبّرت الآية بالنّفس في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ جمعًا، ويدلّ لفظ النّفس هنا على جنس النّاس وأحوالهم، أي: من ذواتكم وحياتكم وشؤونكم وشجونكم، فالمقصود هنا هو انتزاع المثل المضروب، ممّا يحياه المخاطبون ويعرفونه لإثبات وحدانيته تعالى، بما يكشفها، من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها الّتي هي أقرب الأمور إليكم[5]، ولأجل ذلك جاء لفظ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ جمعًا، ليشير إلى تلك الشّؤون كلّها، فالمثل من أحوال جماعتهم؛ "إذ لا تخلو الجماعة عن ناس لهم عبيد، وهم يعرفون أحوال العبيد مع سادتهم، سواء

ضربُ المثل من أحوال النّاس وجماعتهم، أنصع في الدّلالة على المراد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 387.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11397.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.

منهم من يملك عبيدًا، ومن لا عبيد له، فالخطاب لجميع الأمّة، باعتبار وجود فريق فيهم ينطبق عليهم هذا المثل"[1].

نكتةُ الإضافة في لفظ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾:

مواجهةُ المخاطبين باعتقادهم في ربّهم ما لا يرضونه لأنفسهم

أُضيف لفظ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾، إلى ضمير الجمع المخاطب، ونكتة ذلك مزيد القرب من المخاطبين، فهي أنفسكم وما تعرفونه دون غيركم، وهي إشارة إلى مخاطبتهم ابتداء بالمثل؛ فمِن أحوالهم جاء خطابهم مواجهة لهم بها، ليقول لهم: هذا حالكم، فهل ترضون أن يكون لمولاكم ما لا ترضونه لأنفسكم؟.

علّةُ فصل الجملة ﴿هَل لَّكُم﴾ عمّا قبلها:

أهميّةُ التّشويق في تلقّي المثل، وإثارة الاهتمام بالاستفهام

فُصلت جملة ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، عمّا قبلها؛ لأنّها تفصيل لها؛ فقد ابتدأت الآية بالإعلام بضرب المثل، فالمخاطبون يترقّبون المثل، كأنّ ثمّة سؤالًا مفاده: ما هو هذا المثل؟ فتأتي الجملة جوابا عنه وتفصيلًا، ففي الفصل تشويقٌ، لتلقّي المثل، وبعثٌ للاستفهام عنه، وضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن، للبيان والتّوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام، وهو يوضّح الأمر الغامض توضيحًا بيِّنًا، ويجعل الفكرة في الذّهن قائمة واضحة المعالم[2].

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿هَل لَّكُم﴾:

الاستفهامُ والتّقرير، أبلغ من الإخبار في التّأثير

عبّرت الآية عن المثل بصيغة الاستفهام: ﴿هَل لَّكُم﴾، وهو استفهام إنكاريّ[3]، جيء فيه بأسلوب السّؤال مع الدّلالة على النّفي؛ دفعًا إلى التّقرير[4]، فالاستفهام والتّقرير أبلغ من الإخبار؛ لأنّ الخبر قد يكون محلّ تشكيك عندهم، أمّا الاستفهام فإلجاء إلى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 43.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 18/ 11395.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336.

واقع لا يمكن إنكاره، ولا يستطيع أحد منهم أن يفرّ منه، ولا يملك إلّا أن يعترف به[1]، فالتّقرير أقرب إلى التّذكير، وأبعد عن التّنفير[2].

بلاغةُ الحذف في الآية:

بيانُ مدى إبراز الاستفهام، للإنكار والتّوبيخ

في عبارة ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ حذف، تقديره: (هل تَرضون لأنفسكم هذا الحال؟ أن يكون لكم ممّا ملكت أيمانكم شركاء في أرزاقكم، فأنتم في هذه الحال سواء في التّصرّف)[3]، وتكمن بلاغة هذا الحذف في مواجهة هؤلاء المشركين بما يخافونه، والإنكار عليهم رضاهم لربّهم باتخاذ الآلهة ما لا يرضونه لأنفسهم، ففي ذلك معنى الإسكات والتّوبيخ.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لَّكُم﴾:

غرابةُ اختصاص الرّزق الخاصّ بالشّراكة

قُيّد الشّركاء باللّام في قوله: ﴿هَل لَّكُم﴾، وهي تدلّ هنا على الاختصاص؛ أي هل شركاء كائنون لكم، ممّا ملكت أيمانكم فيما رزقناكم[4]، وهي إشارة إلى خصوصيّة الرّزق واستغراب أن يكون العبيد - وهم بعض المال - شركاء في بقيّة المال! حتّى يساويه في التّصرّف في ذلك؛ إذ يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرّف فيه، كما يخاف غيره من الشّركاء والأحرار[5].

إضافةُ القيد ﴿لَّكُم﴾ إلى المخاطبين:

غرابةُ رفض الشّركاء في خالص الملك، وقبول ذلك لله تعالى

ورد أسلوب الاستفهام الحامل معنى الإنكار، عن كون المختصّ بالشّراكة هم المخاطبون، أي: من اتّخذوا إلها مع الله، وعبدوا مع الله بعض عبيده[6]، فكيف يكون حالكم مع أموالكم ورزقكم - الّذي يختصّ بكم - وأنتم مع غيركم شركاء فيه؟ فهذا أمر لا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11399.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 38.
(5) ابن قيم الجوزيّة، التّفسير القيّم، ص: 431.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.

يقبلونه، مع أنّهم يقبلون بأن يكون مع المالك الأوحد شركاء في ملكه سبحانه!.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾:

اكتمالُ المَثَل ببيان أثر شراكة المملوك في ملك سيده

عبّرت الآية عن الشّركاء بحرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، الدّالّة على التّبعيض[1]؛ أي نوع من الشّركاء الّذي في رزقكم هم عبيدكم[2]، وفي ذكر حرف ﴿مِّن﴾ مزيد تفصيل، وتصوير للمثل، فليس الحديث عن الشّركاء عمومًا في الرّزق، بقدر ما هو شراكة المملوك لسيّده في رزقه، بما يزيد الغرابة، ويدعو للرّفض ويورث الإسكات والاعتراف.

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿مَّا﴾ في السّياق:

إطلاقُ تصوّر الشّريك، في أيّ مملوك، لتقريب المعنى

في قوله تعالى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، عبّرت الآية بالموصول ﴿مَّا﴾، الدّالّة على العموم[3]، لتصْدُقَ على أي مملوك من المماليك[4]؛ عبيدًا أو إماءً، الموافق منهم القريب، أو البعيد العنيد، فكلّ من انطبق عليه وصف ملك اليمين، صحّ تصوّر المثل به، ولا أحد يرضى بأن يكون ملك يمينه، شريكا له في رزقه؛ مهما كان المملوك.

دلالةُ التّعبير بمِلك اليمين في الجملة:

بيانُ التّأكيد بأنّ المملوك وماله لسيّده

عبّرت الآية بلفظ الملك في جملة ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، ويدلّ الملك على التحكّم والتّصرّف[5]، وفي ذلك إشارة إلى تمام التّمايز بين المملوك والمالك؛ فالمملوك وما ملكه هو لسيدّه، ولا مجال لتحكّم المملوك في شيء دون سيّده، ومجال استنكار المثل: الاستفهام الإنكاريّ، عن كون المملوك، يصير شريكا لمن ملكه! وهذا أمر لايقبله

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 257.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 38.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 97.

عقل، ولا يستسيغه منطق، ولا يرتضيه عرف في القديم الغابر، ولا في العصر الحاضر.

دلالةُ التّعبير بالجمع ﴿أَيۡمَٰنُكُم﴾:

جاء التّعبير بلفظ (الأيمان) مجموعة في قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾، ويدلّ اليمين على اليد، واليد دليل التّحكّم والتّصرّف، يقال أمْرُك بيمين فلان، أي: في قبضته وتحكّمه، وفي ذلك إشارة إلى تعارض الشّراكة مع المملوك في مال السيّد المالك، وقد جاءت لفظة الأيمان مجموعة، وفي ذلك دلالة لطيفة، على تصوير الآية مغبّة وجود شركاء من المملوكين، يتصرّفون في أموال أسيادهم، وما ينجرُّ عن ذلك التّداخل في التّصرّف والتّسيير، من جهتين منفكّتين، من فوضى عارمة، ومصادمات دائمة، واختلال في الحركة، وتناقض في التّنفيذ، حين تأتي الأوامر والنّواهي بالأمر والتّرك، في نفس الأوان، وهو شبيه بقوله تعالى عن السّماوات والأرض، إذا كان فيهما آلهة غير الله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 21 - 22].

تـحـكّـمُ سـوى المـالـك في ملك المـالــك، مـن أسبـاب الخلل والمهالك

بلاغةُ الكناية في ملك الأيمان في السّياق:

التّعبير بقوله تعالى ﴿مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾، يحمل دلالتين؛ الدّلالة المباشرة، وهي ما تملكه اليد، والدّلالة الكنائيّة وهي التّحكّم التّام، وكمال التّصرّف في الرّزق وحركة الحياة، كاليد حين تمسك بالسّلاح[1]، وتكمن بلاغة ذلك في أنّ المملوك تامّ الخضوع لمالكه؛ لا يملك من أمره الخاصّ شيئًا، فهو في قبضة مالكه، وتحت تصرّف مولاه، ولا غرو أن يفضي المعنى إلى أنّ خضوع العبوديّة امتلاك للنّاصيّة، وتقييد للحريّة، يصبح به المملوك مستطيعًا بالغير،

بيانُ أنّ كمال التّصرّف، مفضٍ لتمام الخضوع وإحكام التّسيير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 6.

لا مستطيعًا بنفسه، وهو ما يتنافى مع إمكانيّة التملّك، أصالة أو بالشّراكة، وهو ما ينطبق على حالة الآلهة المتّخذة من دون الله تعالى، انطلاقًا من كونها مملوكة، وكون الله مالكًا، وأنّ مشاركتها في الألوهيّة محال.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾:

تقدّمت ﴿مِّن﴾ لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾، وحرف ﴿مِّن﴾ هنا مزيدة؛ جيء بها لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النّفي[1]، إذ لا تُزاد ﴿مِّن﴾ في الإثبات[2]، فعمّ بذلك النّفي للشّراكة؛ أي: في أيّ حالة من الحالات، لايسوغ لكم أن تجعلوا لله شركاء فيما رزقناكم[3]، فتأكّد النّفي وعمّ لكلّ الحالات، إذ لا يرضون بهذه الشّراكة أصلًا، وهو ما يزيدهم اعترافًا بخطأ الشّرك بالله، واتّخاذ آلهة من دونه.

تـأكّـدُ الاعـتراف بالخطأ، بتأكّد النّفي وعمومه

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ جمعًا:

آثرت الآية التّعبير بلفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾، ومعنى الشّراكة هو تعدّد الإمساك بالشّيء الواحد، تملّكًا[4] أو تصرّفًا، والرّبط بين أشياء منفصلة برباط[5]، فدلّ لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ على تسوية في المشترَك بين الشّركاء؛ مع أنّ الملك الخاصّ، لا شِرْكة فيه، وقد جاء لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ جمعًا، ليزيد التّصوير جلاءً، ذلك أنّ تعدّد الشّركاء يضعف حظّ الواحد، حيث يصير المالك الأوحد ضعيفًا في تصرّفه، فيما يملكه، وهذا المثل التّصويريّ، إنّما جيء به، لبيان اختلال عقيدتهم في قبولهم الشّراكة لله مع المعبودين، وعدم قبولها لأنفسهم مع العبيد المملوكين.

اقـترانُ التّصرّف في المـشـترَك مـن المـمـتـلـك، وضـعـف تـأثير المالك في ملكه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478.
(2) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (شرك).

معنى ﴿فِي﴾ في قوله ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

تحديدُ محلّ الشّراكة تفصيلًا غير محبوب في بلاغة المثل المضروب

التّعبير بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ يدلّ على الظّرفيّة؛ أي أنّ الشّراكة محدّدة في الأرزاق[1]، فليست في غيرها، وفي تحديدها بالرّزق توضيح للمثل؛ فالشّركاء من العبيد، والمشترك هو الأرزاق، فهل يرضى هؤلاء المشركون بهذا؟.

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿مَّا﴾ في السّياق:

عدمُ الرّضى بالشّراكة في الرّزق مُفضٍ إلى عدم الرّضا بالشّرك

جاء التّعميم بالموصول ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، وفي قوله: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ ليطال كلّ ما رزق الله به المخاطبين، بمعنى كونهم شركاء في أيّ شيء ممّا رزقناهم، وفي التّعميم تصوير للمثل، وفسح للمجال، لتصوّر أنّ المشاركة غير المؤسّسة شرعًا ولا عقلًا ليست مقبولة في أيّ لون من ألوان الرّزق، قلّ أو كثر، من النّفيس والمحتقر، وخاصّة لو كان الشّريك عبدًا من عبيده، فإنّ طبع البشر يرفض ذلك ويأباه، فكيف يرضى ذلك لله، جلّ في علاه.

دلالةُ التّعبير بالرّزق، بصيغة الماضي:

لا شراكة فيما تتمحّض فيه الملكيّة للواحد لا للآحاد

أثر سياق الآية التّعبير بلفظ ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ لعلّة في مادّته وفي صيغته، فأمّا عن مادّة ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾، فالرّزق هو ما ينتفع المرء به انتفاعًا مباشرًا من الطّعام[2]، وفيه إشارة إلى ما يكون به قوام الإنسان، وما به قوام حياته واستمرارها، وحيث أنّه لصيق بالإنسان، فإنّ أي شراكة فيه، سوف تؤثر تأثيرًا بليغًا فيه، وهو ما يعلّل عدم الرّضى بالشّراكة فيما هو قوام الحياة، وأمّا عن صيغته، فقد جاء لفظ ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ بصيغة الفعل الماضي الدّالّ على حدوث هذا الرّزق، وأنّ ملكه له حادث، وذلك باعث على عدم الرّضى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (رزق).

بالشّراكة من ندٍّ له حرّ شريف، بلْهَ أن يكون الشّريك من النّوع المحتقر الضّعيف.

لطيفةُ إسناد ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾، إلى ضمير العظمة:

أُسند الرّزق إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾، للتذكير بأنّ ما تملكون إنّما هو من الله ﷻ، الّذي هو المالك الأوّل، والحقيق بالشّكر على عوارف امتنانه، وفيه امتنان بالرّزق[1]، كما هو باعث على الحياء من موقفهم ممّا رزقهم، ما فيه قوام حياتهم[2]، فصاروا أشحّة عليه، يخافون أن يشاركهم فيه غيرهم، لكنّهم تجرّؤوا على الله تعالى، وأشركوا معه آلهة، واتّخذوا معه أربابًا، فكان التّذكير لهم بمصدر الرّزق هنا مفيدًا.

امتنانُ الله تعالى مشيرٌ إلى إنعامه بسبب الحياة

نكتةُ إسناد فعل الرّزق إلى ضمير الجماعة:

جاء مفعول الفعل ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ضمير جماعة، ليشمل الجميع برزق الله ﷻ، فما بيد السّادة هو من عند الله، وما كان من عبيد هم ملكٌ للسّادة، فهو برزق الله، وفي ذلك مزيد إظهار لتمام ملك الله ولزوم أن يوحّدوه، بدل أن يشركوا به أحدًا من خلقه.

بيانُ أنّ الإشراك، لم يمنع تدفّق الرّزق على العباد

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾:

ابتُدئتْ جملة ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ بحرف الفاء، وهي فاء التّفريع[3]؛ لأن الشِّرْكةَ لمّا كانت سببًا لتساوي الشّركاء في الأمر المشترك، فرّع عليه قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾[4]، وهو تصريح بعد تلميح، وتدرّج في بيان المثل للوصول إلى الموقف الأنسب في الأخير.

مزيدُ تصوير بالتّصريح بعد التّلميح

نكتةُ تقديم الضّمير (أنْتُمْ):

جاء التّعبير عن المبتدأ ضميرًا، في قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، لتأكيد

تساوي الشّركاء في التّصرّف، مع عدم التّكافئ، محلّ استغراب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 97.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.

معنى التّسوية بين الشّركاء، إبعادًا لأيّ مفاضلة بين السيّد وعبده في رزق السّادة، وهو ما لا يرضاه المشركون، ولذلك فهم يقولون لهم: فأنتُمْ أيّها المالكون، وما ملكت أيمانكم في التّصرّف والاحتياج إلى الأموال سَواءٌ؛ إذ أيّ شيء تحتاجون إليه أنتم، هم أيضًا محتاجون إليه بلا تفاوت، لكن أنتم تخافونهُم وتحذرون منهم، أن يتصرّفوا في أموالكم وأكسابكم، بلا اذن منكم، كخوفكم من سائر الأحرار من بنى نوعكم[1].

معنى (في) في القيد ﴿فِيهِ﴾:

جيء بحرف الجرّ (في)؛ للدّلالة على الظّرفيّة؛ أي: أنّ الشّركاء في الرّزق سواء، وفي ذكر الظّرفيّة مزيدُ تنصيص على محلّ الشّراكة والتّسوية، وهو التّصرّف في الأرزاق، ليصل المثل إلى أعلى درجات الوضوح والمواجهة.

أهميّةُ مزيد التّفصيل، في مضمون التّمثيل

نكتةُ تقديم القيد ﴿فِيهِ﴾ على الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾:

قُدّم القيد ﴿فِيهِ﴾ على الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾، في قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، لتخصيص التّساوي بالشّراكة في الرّزق دون أيٍّ من الشّراكات الأخرى، والاستواء في الشّراكة هنا، أن يكونوا مستوين في التّصرّف فيه على عادة الشّركاء[2]، كالشّراكة في النّسب أو الحسب، أو أصل الخلقة، فدفع كلّ توهّم في محلّ الشّراكة أي التّصرّف في الرّزق، والحقّ سبحانه تكفّل لك برزقك، إنّما جعل للرّزق أسبابًا، وكلّ ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب، ثمّ لا تشغل بالك همًّا في موضوعه، وإيّاك أن تظنّ أن السَّعْي هو مصدر الرّزق، فالسّعي سبب، والرّزق من الله، وما عليك إلّا أنْ تتحرّى الأسباب، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك؛ لأنّك لا تعرف عنوانه، أمّا هو فيعرف عنوانك، وسوف يَأتيك يطرق عليك الباب[3].

أهميّةُ تخصيص الشّراكة في الرّزق دون غيرها

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 120.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 244.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 1400.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ وتنكيره:

لا فـروقَ البتّة بين الشّركاء في مطلق التّصرّف في الرّزق

عبّرت الآية عن التّسوية بلفظ ﴿سَوَآءٌ﴾، وتدلّ في ضرب المثال على التّساوي بين الشّركاء في التّصرّف في الرّزق، فلا يعلو بعضهم على بعض[1]، وهي إشارة إزالة الفارق الّذي بين السيّد وعبده، بل إزالة مُسمّى الملك نفسه، حيث يتساوى فيه من يملك ومن لا يملك، وزاد تنكير لفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ في إطلاق التّسويّة بين الشّركاء، فلا تُقصد تسويّة دون تسويّة، إمعانا في إزالة كلّ فارق بين الشّركاء، فصار لفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ يدلّ على إزالة أي فارق ومزيّة، "والمراد إقامة الحجة على المشركين فإنهم لا بدّ أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزّهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم؟ وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟"[2].

علّةُ فصل جملة ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ عمّا قبلها:

تـبـيـيـنُ حـال الـتّـسـاوي بين الشّركاء

فُصلت جملة ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ عمّا قبلها، لأنّها جملة حال[3] موصولة بما سبق؛ تبيّن المساواة الّتي صارت بين هؤلاء الشّركاء، فلمّا ذكرت الآية تساوي الشّركاء في التّصرّف في المال، ذكرت حالهم وهم متساوون في التّصرّف: أي فأنتم فيه مستوون خائفين عبيدكم خيفة مثل خيفة الأحرار الّذين هم أمثالكم[4]، فهي بيان لحال المساواة دون استبداد بشيء[5]، كأنّ الخيفة أثر للتّساوي في التّصرّف وحال له.

دلالةُ التّعبير بالخوف في سياق الآية:

الخوفُ توجّسٌ نـفـسيّ وعـدم اطمئنان

عبّرت الآية بالخوف، في قوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، والخوف انفعال نفسيّ، ناشئ عن توقّع مكروه، والمتوقَّع هنا هو ضياع حقوقهم في أرزاقهم، فصار الخوف توقّيًا من التّفريط

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (سوي).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/ 244.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(4) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 6/ 542.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.

في تلك الحظوظ[1]، فكيف سيكون حال هؤلاء السّادة مع عبيدهم، في حفظ قوام حياتهم، أن يصاب بمكروه؟ وفي ذلك إشارة إلى الاضطراب في التّعامل مع الأرزاق، لعدم الاستقلال في التّصرّف فيها، ولا الاطمئنان عليها، من تصرّفات قد تُؤدي بها جميعًا، وهو ما لا يرضاه هؤلاء المشركون.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾:

الخوفُ حال تتسلّط على النّفس، واستمرارها مرهق

صيغ فعل الخوف مضارعًا، في قوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾، للدلالة على تجدّد الخوف واستمراره، كلمّا وقع تصرّف في الرّزق، ولا تخلو الأملاك من تصرّفات عديدة، فيتجدّد معها التّوقّي والخوف، وهو ما لا يستسيغه أحد وهو يتصرّف في ملكه، وفي ذكر استمرار الخوف، مزيدُ تصوير للاضطراب الّذي سيحصل للأسياد، فيما تعلّق بأرزاقهم، بما لا يصبر عليه أحد.

لطيفةُ إسناد الخوف إلى ضمير الجمع:

خوفُ السّيّد من المسود، انقلاب موازين، وتحوّل وضع مشين

وقع فاعل الخوف على ضمير الشّركاء جمعًا في قوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾، وفي ذلك معنى لطيف؛ إذ فيه تصوير لزمرة السّادة مجتمعة، يخافون زمرة العبيد، ممّن يملكون على ما يملكون[2]، كأنّه تأرجح في موازين السّيادة وانقلاب في الوضع يؤذن بالخراب وجعل السّافل عاليًا، وفي ذلك مزيد تقبيح لحالهم: كيف يرفضون ذلك بتاتا، ولا يرفضونه لسيّد الوجود، وربّ كلّ موجود.

دلالةُ التّعبير بالمركّب الإضافيّ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾:

خيفةُ السّادة بعضهم من بعض، أمرٌ موجود في كلّ زمان

عبّرت الآية بالأنفس مضافة إلى ضمير الجمع المخاطب، في قوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾، وتدلّ الأنفس هنا على النّوع[3]، أي: أنفس الّذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.
(3) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 119.

لهم شركاء من عبيدهم من المخاطبين[1]، فالمقصود بالأنفس هنا الأحرار السّادة؛ أي: خيفتكم مَن هو مِن نوعكم[2]، أي خيفتكم مِن بعضكم، وهو إشارة إلى ما بين المتشاركين في المال الواحد، مِن توقٍّ وملاحظة، من كلّ صاحب سهم لسهمه، في المال المشترك، وفي ذلك خيفة ومشقّة وتوجّس.

دلالةُ الإضافة في ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾:

بيانُ مشقّة الشّراكة، وتوقّي المتشاركين، بعضهم من بعض

أضيفت الخيفة إلى ضمير الجمع المخاطب في قوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾، للدلالة على تحقّق هذه الخيفة فيهم؛ ممّا يتعاملون به من المال المشترك، والمعنى في العبارة، تخافون من عبيدكم في أموالكم، أن يرثوكم بعد وفاتكم كما يرث بعضكم بعضًا، وقيل: المعنى تخافونهم كما يخاف الشّريك شريكه[3]، ووجود متشاركين في مال واحد، مظنّة أن يجور بعضهم على بعض، وربّما أساء ببعض الظّن، فاتّهم أحدهم شريكه، لأنّ العادة أنّ كلّ شريك يراقب الآخر، ويهاب أن يتصرّف في المال المشترك دون إذن منه، في إشارة إلى مشقّة الشّراكة وخطورتها، وقد قال النّبيّ ﷺ: «قالَ اللَّهُ ﷻ: أنا ثالثُ الشَّريكينِ، ما لم يَخُنْ أحدُهما صاحِبَه، فإذا خانا، خَرجتُ مِن بينِهما»[4]، ولا أسلم للمرء من استقلاله بماله، يتصرّف فيه كيف يشاء.

بلاغةُ التشبيه في قوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾:

تشبيهُ غريبٍ بمعروف، مفض للإبانة عن المعنى المألوف

شبّهت خيفة تصرّف العبيد في ملك سيدهم، بخيفة المتشاركين بعضهم من بعض، في المال المشترك، وتكمن بلاغة هذا التّشبيه في تقريب شيءٍ غريبٍ، بشيء معروف مألوف؛ مع وجود عُسرٍ فيه؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 82.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 82.
(4) الحديث أخرجه أبو داود، الحديث رقم: (3383)، والحاكم، المستدرك: 2/ 52، وصحّحه، ووافقه الذّهبيّ، وأعلّه الدّارقطني في (علله): (2084) بالإرسال، ورواه الدّارقطنيّ، برقم: (2933)، ينظر: الدارقطنيّ، السنن: 3/ 442.

فيستحضر المخاطبون تلك المشقّة في التّوقّي، ثمّ تزداد بلاغة التّشبيه درجة؛ فالتّوقّي الحاصل مع المتشاركين، أمر مقبول على الرغم من عسره؛ لأنّ كلّ واحد من الشّركاء أسهم بنصيب من ملكه الخاصّ، وهو يلاحظ نصيبه بملاحظة المال المشترك، ولكنّ التّوقّي من تصرّف العبيد، أمر مرفوض، كيف والمال مال السّيد خالصًا، وليس لهم فيه حقّ ولا نصيب، بل إنّ العبد من ملك السّيد أيضًا، فيتصرّفون فيه، كأنّهم أرباب الملك، وعليه فالتّشبيه هنا تقريب غريب بمألوف، فهو ترقّ من درجة عُسرٍ إلى أسوأ منها، وهو حال مرفوض[1].

براعةُ التّمثيل على بطلان الشّرك:

الغرابةُ أن يرضوا لأنفسهم، ما لا يرضونه لربّ العالمين

جاء هذا المثل في أعلى درجات البيان؛ فهو تشبيه هيئة مركّبة، بهيئة مركّبة أخرى: فالمشركون اعتقدوا أنّ للّه شركاء - ممّا خلق - يتصرّفون في ملكه، يجلبون النّفع لعباده ويدفعون عنهم السّوء، فشُبّه ذلك بسادة لهم عبيد شركاء في أرزاق سادتهم، يحذر السّادة من تصرّفاتهم، وفي التّمثيل تشبيه هيئة حاصلة مشينة، ألفها النّاس - وهي الإشراك باللّه أصنامًا -، بهيئة منفّرة مشوّهة منكرة، حتّى يقارن النّاس بين هذه وتلك، فيقفوا على سوء تصرّفهم وقبح إنزال اللّه منزلة أدنى من منزلتهم، فهل يرضى هؤلاء السّادة بشراكة عبيدهم في ملكهم، ثمّ يقبلون أن يتغاضى اللّه عن تصرّف آلهتهم في ملكه وهم ملك له؟[2].

بلاغةُ الجناس في ذكر (مِن):

جناسٌ يختصر المَثَل، وبفصح عن المراد في السّياق

تكرّر الحرف (من) في الآية ثلاث مرّات، في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾، وفي قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾، فقد قال أبو السّعود: "فمِن الأولى ابتدائيّةٌ، والثّانيةُ تبعيضيّةٌ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.

والثّالثةُ مزيدةٌ، لتأكيدِ النّفيُ المستفادِ من الاستفهام"[1]، ومع اختلاف موقع كلّ واحد منه ودلالته، فقد رسمت في الآية جناسًا تامًّا قال ابن عاشور: "فالجمع بين هذه الحروف في كلام واحد، من قبيل الجناس التّام[2]؛ وتكمن بلاغة الجناس هنا في تصوير المثل كاملًا بين من الإبتدائيّة من الأنفس، ومن الجزئيّة من الملك، ومن التّأكيديّة للنّفي، فصار المثل دائرًا بين هذه الأحرف الثّلاثة، مبلورة في مدخول كلّ منها، من الأنفس والملكيّة، والشّركاء.

دلالةُ التّعبير بإشارة البعد في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

بيانُ أنّ البعد معبّر به عن الدّرجة الرّفيعة

عبّرت الآية عن البيان المفصّل باسم الإشارة للبعيد (ذلك) لكونه يرجع إلى البيان العالي الّذي في المثل، وذلك لما في هذا المَثَل من التّفصيل البليغ، والإقناع العالي، والأسلوب الرّفيع؛ فقد احتوى هذا المثَل على ملامح المَثَل، ودقّة التّقابل، واللّمسات النّفسيّة الدّافعة إلى رفض الإشراك بالله سبحانه، فكأنّ علوّ مستوى هذا البيان، صار كالبعيد، فأوثر اسم الإشارة الدّال على البعيد، بغرض التّعظيم، لتفصيل نصّ الآيات الكريم، فلمّا كان هذا المَثَل في ذروة الكمال؛ في تقريب المعنى وتصوير المشهد ودفع الكفّار إلى الاعتراف بقبح الإشراك بالله، لِما لمسوه من بيان في المثل، قال: (كذلك التّفصيل نفصلّ الآيات)[3].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿نُفَصِّلُ﴾ مضارعًا:

معالمُ التفصيل، توضيح وتقريب وتمييز

آثرت الآية التّعبيرَ بلفظ التّفصيل في قوله: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأنّ الفصل هو الميز[4]، فتتميّز الأمور وتبيّن المتشابهات، وتتّضح المعاني والمغازي، ففي التّفصيل كشف للمعاني وتوضيح لها[5]، وفي المثل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 85.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.

محاكاة وتوضيح[1]، و"تصوير للمعاني المعقولة، بصورة المحسوس، فتصير أوضح"[2]، وتقريب الغريب المجهول، في هيئة المعروف المعقول، وإيراد ما يحسّ، على صورة ما يؤنس، قال أبو السّعود: "تصويرٌ للمعاني المعقولة، بصورةِ المحسوسِ، وإبرازٌ لأوابدِ المُدركاتِ على هيئة المأنوسِ"[3]، فقد صارت صورة الإشراك باللّه، مشوّهة منفِّرة عند المشركين أنفسهم؛ لـمّا تمّ مقارنتها بالشّركاء العبيد في خالص ملكه، وخاصّ محيزه[4]، وصيغ الفعل ﴿نُفَصِّلُ﴾ مضارعًا؛ للدّلالة على التّجديد والاستمرار[5] في الحال، والمثال.

نكتةُ إسناد الفعل ﴿نُفَصِّلُ﴾ إلى ضمير العظمة:

تفصيلُ الآيات كمالُ حكمة، ولطيفُ رحمة من بديع الأرض والسّماوات

أُسند الفعل ﴿نُفَصِّلُ﴾ إلى نون العظمة، ونكتة ذلك، إظهار كمال العلم والحكمة في اللّه سبحانه، من خلال هذه الأمثال، وهذا التّفصيل، يعني تبيينها وتوضيحها، لا تفصيلًا أدنى منه، فإنَّ التَّمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة، بصورةِ المحسوسِ، وإبرازٌ لأوابدِ المُدركاتِ، على هيئة المأنوسِ، فيكون في غايةِ الإيضاحِ والبيان"[6]، كما يظهر فيها تمام الرّحمة والرّأفة، أن أسهب سبحانه في إبطال شبهات المشركين، وهو الغنيّ العزيز، لكنّ رحمته أوسع لعباده؛ حتّى يقفوا هم أنفسهم، على بطلان الإشراك باللّه، وتمام الهداية بعبادته وحده، دون سواه.

دلالةُ التّعبير بالآيات دون العلامات والدّلائل:

أهميّةُ دلالة العلامة، وأثر وضوح الدّلالة

جاء التّعبير بالآيات، في قوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ دون العلامات أو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98.
(2) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 119.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 388 (بتصرّف).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(6) أبو السعود إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.

الدّلائل؛ لما في الآيات من الأدلة الجليّة[1]؛ فالآية علامة، تحمل دلالة واضحة، ومع وضوحها وجلائها يزيدها البيان القرآنيّ تفصيلًا وبيانًا، لتزداد دلالة على الحقّ وهدايته ورحمته، ومفاد قوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، "أي دلائل توحيدنا، وبراهين وحدتنا وتفرّدنا لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ ويستعملون عقولهم، في تأمّل الآيات، والتّدبّر فيها على وجه العبرة والاستبصار، فاعتبروا يا أولي الأبصار"[2].

دلالةُ جمع ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في السّياق:

سَوقُ الآيات به يتضافر المعنى ويتكامل، ويستبين المقصود ويتجلّى

جاءت لفظة ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ جمعًا، وفي جمعها تعدّد وتنوّع، فكلّ آية تدلّ على دلالة، فإذا تعدّدت الآيات وتنوّعت، تعدّدت معها زوايا الاستدلال، فيقوى بها التّعليل، وتتضافر بها الدّلالة، وتتكامل بها الرّؤية، حتّى تورث يقينًا راسيًا، وتزيح كلّ شبهة، وتمحو كلّ ريبة.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِقَوْمٍ﴾:

فصّلت الآيات، لأجل إعمال العقول النّيّرات

جُرّ لفظ القوم باللّام، في قوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾، وهي لام التّعليل؛ أي لأجل القوم العقلاء، نفصلّ الآيات، فالمقصد من التّفصيل هو إعمال العقل، وما تكرّر الاستدلال وتنوّع، إلّا للفت الأنظار، ولإيقاظ القلوب لتذكّر، والعقول لتفقه، والقصد أنّ القوم المذكورين هم الّذين يستعملون عقولهم، فى تدبّر الأمور والأمثال[3]، والتّمييز بين الحقّ والضّلال، فيكون وصفهم بالقوم تمييزًا وتنصيصًا، ووصفهم بالعقل تكريمًا وتخصيصًا.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿لِقَوْمٍ﴾ منكّرة:

السّياقُ تحفيز لذوي العقول للنّظر في المثل المنقول

آثرت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿لِقَوْمٍ﴾ دون ملأ، لما في لفظ القوم، من رسوخ الوصف بالتعقّل؛ أي إنّ إعمال العقل عادةٌ وطبع فيهم؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 81.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 120.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 29.

عُرِفوا بذلك وبه تميّزوا[1]، وجاء لفظ ﴿لِقَوْمٍ﴾ نكرة، ليعمّ كلّ من يصحّ أن يوصف بذلك، فيدخل في هذا الخطاب كل ذي عقل من المخاطبين ومن بعدهم إلى يوم الدّين، وفي ذلك تحفيز للمخاطبين بأن ينظروا في المثل وبيانه، إن كانوا من ذوي الحجى.

علاقةُ مضمون الآية بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾:

العقلُ مفضٍ إلى قابليّة للانتفاع، ومنع للهوى والضّياع

خُصّ القوم العقلاء، بتفصيل الآيات، مع عموم التّفصيل لكلّ المخاطبين، لأنّ من يُعمل عقله، فإنّه سيكون أوّلَ مستفيد من توضيح الآيات[2]، ولأنّ أصل إطلاق العقل، هو المنع من الهوى، فمن يُعمل عقله، فإنّه لا محالة سيقوّم عاداته وأعراف النّاس، ويجعل نداء العقل مقدَّمًا، على الهوى والإلف[3]، فيكون منهُ ترك الشّرك والاهتداء بنور التّوحيد.

دلالةُ المضارعة في ﴿يَعْقِلُونَ﴾:

تجدّدُ إعمال العقل، يورث الهداية

عبّرت الآية عن تعقّل الأمثال، في قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ بالفعل المضارع؛ لدلالة ذلك على تجدّد التّعقّل[4] وإدمان استعمال العقل في تدبّر المثال، فمن درّب عقله على التّفكير، والنّظر البصير، والاعتبار الجدير، اهتدى إلى طريق الهدى، ومنع نفسه من موجبات الرّدى، وكان أوّل المنتفعين بهذه الأمثال على المدى.

بلاغةُ التّعريض في جملة الفاصلة:

المشركون لا تمييزَ لهم يردع، ولا عقول لهم تمنع

خُتمتِ الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وفي ذلك تعريض بالكفّار؛ فالتّمثيل الّذي يكشف المعاني بالتّصوير والتّقابلات لا يدع لبسًا، فمن خفيت عليه هذه المعاني، لم يكن له عقل ولا تمييز[5]، فأهل العقول يتنزّهون عن المكابرة والإعراض،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 87.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11402.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.

ويُقبلون على الحقّ والحقائق، لنضج عقولهم، فمن تصلّب في شركه، وأوغل في كفره، فليس من أهل العقول، ولا ممن ينتفعون بها[1]، وفي الآية إشارة إلى أنّ من لم يعملوا بمقتضى توجيه الله تعالى، وفق ما مثّلت الآية، كانوا مجانين، لأنّ" التّمثيل يكشف المعاني بالتّصوير والتّشكيل، كشفًا لا يدع لبسًا، فمن خفي عليه لم يكن له تمييز"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّريك والمُقاسِم:

الشّريك مساهم ممازِج، والقسيم مقابِل مجزّئ

إذا كان الشّريك والقسيم، يجتمعان في معنى صاحب نصيبٍ في الشّيء الواحد؛ فإنّ بينهما فروقًا، فالشّريك هو الملازم لآخر في شيء، يكون لاثنين فصاعدًا[3]، أمّا القسيم فمن القسم، وهو فرز النّصيب وتفريقه، يقال: قسّمت الشّيء بين الشّركاء أي جزّأته[4]، والقسيم هو ذو النّصيب[5]، فالملاحظ في الشّريك المساهمة في المجموع والممازجة[6]، وفي القسيم تقسيم المجموع، ومعنى التّقابل بين الأقسام، ومن هنا يتبين سبب اختيار لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ في الآية من حيث إنّ الشّراكة هي تعدّد الإمساك بالشّيء الواحد، تملّكًا أو تصرّفًا وهو يناسب سؤال الآية بطريقة الاستنكار عن قبول أن يكون العبيد شركاء لسادتهم في الرزق.

التّفصيل والتّبيين والتّوضيح:

التّفصيلُ للإجمال، والتّبيين للالتباس، والتّوضيح للغموض

يلتقي التّفصيل والتّبيين في التّوضيح، فالتّوضيح كشف عن الغموض، وإزالة للخفاء، ثمّ إنّ بين التّفصيل والتّبيين فروقًا؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 87.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (شرك).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قسم).
(5) الرّاغب، المفردات: (قسم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (شرك).

فالتّفصيل من الفصل، وهو إبانة أحد الشّيئين من الآخر، حتّى إلى درجة الإبعاد والفرجة بينهما، ومنه قيل: المفاصل[1]، فالتّفصيل توضيح بعزل كلّ قسم وتمييزه[2]؛ بما يفرّق بينها فرقًا جليًّا[3]، فهو تجزئة للكلّ وتقسيم لمجمل الشّيء، ومنه الإجمال في المعاني، فتفصّل إلى أقسامه وأجزائه، والتّبيين توضيح بعد لبس؛ وإنّما البيان لما فيه لبس[4]، ومنه البيان للتّمييز والتّفريق، حتّى لا يبقى أي اشتباه بين المميّزين، فالتّفصيل خلاف الإجمال والتّبيين خلاف الإبهام، والتّوضيح خلاف الغموض[5]، وناسب سياق الآية اصطفاء لفظ ﴿نُفَصِّلُ﴾ بوصف الآيات التي تُضربُ مثلا إنّما هي كشف عن غموض، أو رفعٌ لإلباس، أو إزالةٌ لمخفيٍّ، أو تفريق بجلاء.

(1) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (فصل).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 134.
(4) الرّاغب، المفردات: (بين)، والعسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 371.
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 68.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»